الباب الثالث

دور الجمود

انتهى التقليد الجاهلي إلى ما يشبه الجمود ، وأصبح الشعراء يرددون فى الطبيعة نغمات معادة ، ويكررون معانى مطروقة . ولولا ما امتازت به جملة الشعر فى ذلك الدور من تمثيل للشخصية قليل أو كثير ، مع استجابة لوحى الوسط والبيئة ، قدر طاقة النفس المقلدة ، ما ترددنا فى القول بأن شعره قد جمد وتركز فى أشكال معينة للوقوف بالأطلال ، وتصوير رحيل الأحبة ، وركوب الناقة ، ووصف حمر الوحش ، وما قد يتراءى فى الجو من برق ، وما تجود به السحب من غيث .

وكان للمدح أثر بالغ فى توجيه شعر الطبيعة ، كما سبق ؛ إذ أصبح وسيلة لا غاية ، وأصبح الشعراء ، أو جمهرتهم ، يعتمدون على عرض الأمثلة القديمة أكثر مما يعتمدون على التعبير عن المشاهد ، والإفصاح عن الشعور .

وكان طبيعيًّا أن ينتهى أمر هذا التقليد بالجمود ، ما لم توجد عوامل جديدة تبعث الشعور بجمال البيئة قويًّا ، وتثير الشعراء للتطور بهذا الفن نحو الكمال . لكن العوامل الجديدة كانت على النقيض من ذلك ، تؤيد المنحى القديم ، وتدعم الغاية المحتومة .

الفصل الأول

فى صدر الإسلام

ا

أعلن الرسول العربى دعوته ، فانبرى لها العرب يحاربونها بوسائل عدة ؛ منها نهوض شعرائهم بهجاء المسلمين ، والتشهير بمحمد وأتباعه ، وسلق المسلمين بألسنة حداد . ولم يكن بد للرسول من محاربتهم بمثل سلاحهم ، ولم يكن بد لشعراء المسلمين من رد العدوان . وكان قوام المعركة جاهليًّا من الجانبين ؛ يقوم على الوقائع والأيام والمثالب والأنساب . أما التعبير بالكفر والأوثان ، لم يكن المشركون يأبهون له ، ولم يعن به حسان بن ثابت شاعر المسلمين الأول .

ضم النبى إليه شعراء ينافحون عن الدين الناشئ ، ويردون هجمات المشركين ، ويمدحون صاحب الدعوة وأصحابه . ولم يكن بأس من استخدام هذه الأساليب القديمة تأييداً لدعوته ، ما دامت سلاحاً ماضياً . وقصة وفد تميم مثل فى هذا .

وأخذ هؤلاء الشعراء يمدحون النبى ، كما كانوا يمدحون اللخميين والغساسنة ، ويهجون خصومه ، كما كانوا يهجون خصومهم ، ويدخلون إلى المدح بأوصاف للطبيعة على طريقتهم . لكن التطور الزمنى قد جعل الأوصاف الطبيعية أشد اقتضاباً وجموداً .

ويظهر أن الرسول لم يكن شديد التأثر بهذه الأوصاف . ذلك بأن مكة التى نشأ فيها ، بل الحجاز التى جابها ، كانت حضرية ، كما أن توفره على الدعوة التى أوحى إليه بها جعله حريصاً على أن تملأ جوه ، ولم يجد فراغاً يدفعه إلى العناية بهذه الصور استرواحاً إليها وتسلياً .

ولا يعنى هذا أن الطبيعة لم تكن مما تتعلق بها حواسه ؛ فالقرآن قد استخرج منها العبر فى كثير من آياته ومنها قوله تعالى : « إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ

لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعقلونَ» . لكن هذه نظرة أعم إلى الطبيعة تخالف الأوصاف البدوية السابقة .

وأقسم بالسماء ، والأرض ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والليل ، والنهار ، والفجر ، والضحى ، والريح ، والسحاب ، والجبال ، والبحر ، والخيل ، والتين ، والزيتون . وجعل فيها آيات لأولى النهى ، وعبرة للمعتبرين .

ولعل هذا الاتجاه للموعظة بالطبيعة كان من العوامل التى جعلت أبا تمام وغيره من بعد يستخلصون منها الدلائل الباهرة ، والحكم العالية . ولولا جمود هؤلاء الشعراء الذين عاشوا فى مكة والمدينة ، لأفادوا من التوجيه القرآنى ، ولما نهجوا منهج الجاهلية ، ولكان لهم منحى خاص .

وقد يدل على مبلغ تقدير الرسول لشعر الطبيعة التقليدى الجامد ما روى من أن كعب ابن زهير حين وفد على النبى وأخذ ينشد قصيدته : «بانت سعاد» ، احتمل النبى فى صمت أحاديثه عن الحب والرحيل والناقة ، وهى كثرة القصيدة ، حتى إذا بلغ بعد لأى مدح الرسول فى صحبه نظر النبى «إلى من عنده من قريش كأنه يومئ إليهم أن يسمعوا»[1] ، وكأنه يقول : إن هذا هو الكلام الجدير بالذكر ، وإن خير الشعر ما أنشد تأييداً للرسول وللدعوة إلى دين الحق . ولعل الرسول كان يقف موقفاً آخر لو أن كعباً نهج فى هذا الشعر منهجاً حيًّا .

وكيفما كان الأمر فقد صار الشعر وسيلة لخدمة الدعوة الدينية ، وكان بهذا سائراً فى طريقه القديم ، وإن انتقل من حيز إلى آخر .

٢

هل أثر هذا الاتجاه بالشعر إلى تأييد الدعوة الدينية فى شعر الطبيعة ، أو نحا به منحى جديداً ؟ لا ؛ فشعر الطبيعة قد انتهى إلى الجمود ، وشعراء المسلمين كانوا يبدأون مدائحهم للرسول فى جمود عقيم على القديم .

فحسان بن ثابت ، يوم فتح مكة ، يبدأ قصيدته :

عَفَتْ ذاتُ الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلُها خلاء

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ط أوربا : ص ٦٨ .

ببكاء الأطلال وحديث الحب والخمر ، ثم ينتقل إلى الخيل تملأ الدنيا غباراً ، ليهدد المشركين بفتح مكة وغلبتهم على أمرهم إن لم ينيبوا إلى الله .

والجمود واضح حين يبكى ديار بنى جفنة فى الشام ، ويذكر تعفية الرياح والمطر عليها ، كما كان يصنع البدوى فى بكاء الأطلال ، وشتان بين ديار بدوية وقصور ملكية شآمية ! .

وقد يقتضب هذا المدخل اقتضاباً ، ويدخل إلى حديث الإله والشكوى إليه من المشركين عن طريق الوقوف بالأطلال والغزل [١] ، كما كان يصنع فى مدح النعمان بن المنذر وجبلة ابن الأيهم . وكان المدخل جامداً فى الحالين ، قلقاً فى موضعه ، لا يصدر عن عاطفة صادقة ولا يعبر عن انفعال نفسى . ولسنا فى هذا متجنين على حسان ؛ فقد أكد جموده حين قال : إن رسوم الديار ومظعن الحى ليست من دواعى الهياج عنده [٢] .

ولم يكن حسان ولا شعراء الرسول بأسوأ حالاً فى هذا الفن من الشعراء الذين لم يسلموا أو تأخروا فى الإسلام . ومن هؤلاء الحطيئة الذى اتخذ الأوصاف الطبيعية مدخلاً للمدح الذليل والهجاء الفاحش ، معتمداً على التحوير فى صور القدماء ، وجامداً على طريقة أوس .

وقيس بن الحطيم يبدأ فخره كذلك بالوقوف بالأطلال على نحو جامد [٣] .

وهكذا لم يكن الرسول ولم تكن دعوته سبباً فى الجمود الشعرى ، وإنما كان تطوراً طبيعيًّا لما انتهى إليه العصر الجاهلى . وآية ذلك أن الشعراء حين اتصلوا بالدين اصطنعوا أساليب قديمة ، ولم يجددوا حسب مقتضى الحياة الإسلامية .

قد يقال إن القرآن بهرهم ، فانصرفوا عن الشعر إعياء ، مأخوذين بسحر القرآن عما سواه . لكن الحقيقة هى أن الرسول أوى الشعراء كما قدمنا ، وإن اضطهد أحداً منهم فلمناوأته للإسلام شأن غيره من الناس .

والقرآن كتاب مقدس ومعجزة لا يأتى البشر بمثلها ، فليس بينه وبين الشعر البشرى من صلة تؤدى إلى تأثير أحدهما فى الآخر قوة وضعفاً . ولو أن الشعراء كفوا عن الشعر لأمكن أن يصح هذا القول ، لكن الواقع من أمرهم أنهم لم يكفوا ، فالحطيئة وحسان وغيرهما قالوا الشعر بعد الإسلام على طريقتهم قبله .

---

(١) ديوان حسان : ص ١١ .

(٢) نفس المصدر : ص ٣٨٠ .

(٣) الجمهرة : ص ٢٤٦ .

فالجمود كان ، أوكانت أصوله ، موجودة قبل الإسلام ، وحين أتى الإسلام بحياة جديدة ومجتمع جديد ، لم يستطيعوا التعبير عن حاضرهم ؛ لأنهم لم يعبروا عن أنفسهم فى الماضى ، وإنما عبروا عن أساليب غيرهم . والشاعر الصادق فى شعوره الصادر عن حسه تتحد عنده جميع موضوعات الشعر ، وإن توافرت له البراعة فى أحدها ، ويجد فيها جميعاً منبعاً للبيان .

وإذا قيل إن الرسول قد اصطنع الشعراء تأييداً لدعوته ، فهو فى الواقع لم يبتكر هذا اللون من استخدام الشعراء . ومَن قبله ، من الأمراء والملوك المقيمين فى أطراف الجزيرة ، قد اصطنعوا الشعراء يمدحونهم ويهجون خصومهم ، ويؤيدون نفوذهم بين العرب . والنبى لا ريب صاحب دعوة ورسالة تحتاجان إلى تأييد الشعراء فى هذه البيئة العربية ، وتفيدان من اصطناعهم .

ولا نعنى أن الحياة الإسلامية لم تؤثر فى توجيه الشعر العربى ، وإنما نعنى أن الرسول لم يقف منه موقف خصومة أو عداء ، ولم يعن منه إلا بما اتصل بمدحه أو هجائه ، ولم يلجئ الشعراء إلى اصطناع الأساليب البدوية فى المدح ، ولم يفرض عليهم أسلوباً جديداً . أما الحياة الإسلامية فكان لها أثر فى تاريخ الأدب العربى كافة ، كما كان لها أثر فى شعر الطبيعة ، سيأتى حديثه بعد حين . وهكذا فالرسول كان مؤثراً فى الشعر بقدر ما جاء به من دعوة جديدة غيرت مثل المجتمع العربى ، وهيأت للعرب إمبراطورية وحضارة شامختين .

٣

ولما توفى الرسول ، وتولى الخلفاء الراشدون أمر المسلمين ، ساروا على نهجه فى اتخاذ الشعر وسيلة لتأييد الدين ، وتمكين مبادئه فى النفوس .

روى أن سحيماً أنشد عمر بن الخطاب قوله :

عميرة ودع إن تجهزت غاديًا كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا !

فقال عمر : «لو قلت شعرك كله مثل هذا لأعطيتك عليه» [1] .

أما الشعراء فقد جمدوا على نماذج وقواعد لم يستطيعوا فكاكاً منها . فالحطيئة ، حين يستعطف عمر بن الخطاب ليطلقه من السجن ، يصطنع الأساليب القديمة ، ويجمد عليها

(١) الأغانى ، ج ١ ساسى : ٢٠ ص ٣ .

جموداً شديداً فى قصيدته :

نأتك أمامة إلا سؤالا وأبصرت منها بطيف خيالا

فيبالغ فى وصف الرحلة على طريقة أوس التى تعنى بالصياغة اللفظية . وكان جامداً فى الطريقة ، بل كان جامداً حين وصف الرحلة إلى عمر على هذا النحو ؛ وبلوغ عمر ليس فى حاجة إلى رحلة ، بل إلى فتح باب السجن ، أو ارتقاء درجاته ! ولا ريب أن هذا لا يلائم ذوق عمر . ولا عجب ألا يجفل بشعره هذا ، ولا يفكه من أسره إلا حين يستغفر ويستعطفه بأبيات أخرى ؛ ذاكراً أولاده الصغار وما يلقونه من فاقة بعد إلقاء عائلهم فى قعر مظلمة ؛ فيرق له قلب الأمير الرحيم ! .

والحطيئة فى رحلته السابقة قد وصف الناقة معنيًّا ببيان خُلقها من الصبر على التعب ، وعدم الشكوى ، وسبقها النياق السريعة ، ومظهرها فى الغضب ، وما إلى ذلك . كما وصف أحوال الغزال حين يرعى الشجر والنبت ، وحين يصيّف وحين يتربّع .

ونحو هذا الوصف لا نجده عند حسان . فهو يمر بالأوصاف الطبيعية مسرعاً . وهذا طبيعى فى الاثنين . ذلك بأن الأول من مدرسة أوس التى عنيت بهذا الضرب من الوصف لحياتها البدوية العريقة ، أما الثانى فيسلك طريق أهل المدر من أمثال جماعة المرقش الذين لا يتغلغلون فى هذه الأوصاف . وكلاهما جامد فى تقيده بالمعانى القديمة ، وليس لها سوى النظم الذى يمتاز فيه الحطيئة كثيراً على حسان .

وهذا اللون الشعرى فى وصف الطبيعة يبدو جامداً كل الجمود حين نلقى نظرة ، وإن سريعة ، على الحياة الإسلامية فى وضعها الجديد ، بعد الفتوحات العظيمة .

هل مثل الشعر الحضارة الجديدة ؟ هل وصف الطبيعة المشرقة بزرعها ومائها وطيورها ؟ هل أفاد من الفن الفارسى والرومى الذى يصور الطبيعة فى أبهى الصور ؟ .

طبيعى ألا يحدث شىء من هذا ، إذ كانت النزعة البدوية متأصلة فى النفوس لذلك العهد ، كما كان الشعراء جامدين عند القديم ، يرددون أحاديث الأطلال والناقة والصحراء والرمال وسط مظاهر حياتهم الحضرية المترفة . وإن الإنسان ليشعر بشىء من ظاهر الغرابة حين يرى الشعراء ، فى بدء المعارك الحربية الخالدة كمعركتى اليرموك والقادسية ، يرددون النغمات القديمة التى كانت ترددها كل قبيلة فى غارتها على الأخرى .

والحقيقة هى أن الشعر جمد على حين تطورت ألوان الحياة الأخرى : حربية ، وسياسية ، واقتصادية ، واجتماعية . وكان الرسل الذين يفدون على أمير المؤمنين ، وبخاصة عمر ، بأنباء الفتوح والمغانم ، وكانت الكتب التى يبعث بها القواد إليه فى تصوير البقاع والأمكنة أقرب إلى تصوير الواقع من الشعر الجامد . ولو أن هنالك شاعراً ملهماً لصور الطبيعة الغنية أروع تصوير .

الفصل الثانى

فى العصر الأموى

١

وأتت الدولة الأموية بعد منازعات وإحن ، وإيقاظ لفتن نائمة ، وزادت معها رقعة الإمبراطورية الإسلامية شرقاً ببلاد السند والأفغان الشرقية ، وغرباً بما وراء مصر إلى المحيط الأطلسى فى أفريقيا . وأصبحت عاصمة الدولة ، دمشق ، فى بيئة فاتنة مليئة بالمناظر الطبيعية الجميلة من جبال وأنهار وأودية ورياض . فهل وصفت تلك الطبيعة ؟ وهل غير الشعراء ، الذين أقاموا بها وأخذوا ينشدون أشعارهم أمام أمير المؤمنين ، المنهاج القديم ؟ كلا ! ظل الشعراء يقفون بالأطلال ويصفون الناقة والرحيل ، ويمعنون فى المعانى الجاهلية من الخمر والنساء ، كأن الإسلام لم يكن ، وكأن حياتهم لم تتغير .

فعمر بن أبى ربيعة مثلا يبدأ حديث الهوى فى عالم الفن والموسيقى والحضارة بقوله :

ألم تسأل الأطلال والمتربعا ببطن خُلَيَّات دوارسَ بلقعا
إلى الشَّرى من وادى المغمَّس بُدلت معالمُه وبلاً ونكباء زعزعا
فيبْخَلن أو يخبرن بالعلم بعد ما نكأن فؤاداً كان قِدماً مفجعا

ولا ريب أن هذه وقفة تعودناها فى البداوة الأصيلة ، فهل كانت لصاحبنا نزعة بدوية أو كان أبوه بدويًّا ، لقنه العناية بالبادية والهيام بأطلالها ؟ لا ! لقد كان الشاعر حضريًّا نشأ فى مكة ، وكان أبوه حضريًّا من المكيين المعروفين بالثروة والنعيم . إنه لم يعبر عن عاطفة أو هوى بدوى ، وإنما بدأ قصيدته كما بدأ القدماء قصائدهم ، وليس من اللازم أن تكون هذه المعالم الباهتة آثاراً لحب .

ولم يكن كُثَيِّر بأكثر مرونة من عمر ، وإنما كان أشد جموداً على المعانى الجاهلية فى الطبيعة ، بل فى الأخيلة والصور التى ينتزعها من الطبيعة ، حين يتحدث عن الحب .

وقد يسرف فى المعانى البدوية حتى يسخر منه معاصروه ، وتنكر عليه القول حبيبته [1] .

(١) الأغانى ؛ ط ساسى : ج ١ ص ٢٢ .

٢

ويبدو الجمود على أشده عند شعراء الأقاليم المداحين الذين اتصلوا بملوك الأمويين وولاتهم ، وتوفروا على المدح والهجاء . وهؤلاء هم الشعراء الذين يحتلون المكانة الأولى فى العصر الأموى ، وتسير أشعارهم فى أنحاء الإمبراطورية الإسلامية بتأثير الخلفاء والولاة وعملهم لهذه السيرورة ، ويشتغل العامة والخاصة والمدنيون والعسكر بإنشادها ، والمباراة فى المفاضلة بين أصحابها .

وأعلام هذه الجماعة الأخطل وجرير والفرزدق . والثلاثة من بلاد ما بين النهرين ولدوا ونشأوا فيها ، ثم أقبلوا يساهمون فى الأحداث السياسية ويضربون بسهم وافر . وقد امتثلوا الشعر القديم ، وسلكوا فى المدح الطريقة الجاهلية ، وجمدوا فى الأوصاف الطبيعية جموداً لا يتفق مع حياتهم الاجتماعية والسياسية ، ولا مع البيئة التى نشأوا فيها .

والأخطل النصرانى التغلبى ، أكبر هذه الجماعة ، وشاعر أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان ، لا نستطيع أن نتبين فى استفتاحاته الطبيعية التى تطول حيناً وتقصر حيناً أى فرق بينها وبين الشعر الجاهلى ، حتى ألحقه جمهرة النقاد بالشعراء الجاهليين ، وفضلوه لهذا على معاصريه .

وقد أوغل فى وصف حيوان الوحش ، وعهدنا بشعراء بكر الذين كانوا يسكنون بيئته ، قبل الحضارة الإسلامية ، ألا يتوغلوا توغله . لكنه يحاكى من جملة الشعر القديم ما اتصل ببيئته وما بعد عنها .

وهو لهذا الجمود لا يظفر بمميزات بيئته ، من الترتيب ، ووضوح الوحدة فى القصيدة ، وإن ظفر بالعناية اللونية وبشىء من التصوير المعنوى . ففى قصيدة(١) ينتقل من المنزل إلى وصف المهمه والناقة وحيوان الوحش ، ومن هذا إلى حديث الشراب والنديم ، ومنه إلى القَسَم على الطريقة الوثنية لينتهى بالمدح . وكل هذه الانتقالات مفاجئة لا رابط بينها . وإن صح تقدير روابط نفسية فى الشعر القديم ، فإنها لا تصح فى هذا الشعر بحال .

---

(١) راجع قصيدته :

تغير الرسم من سلمى بإقفار وأقفرت من سليمى دمنة الدار

وإذا احتمل هذا الجمود ، إن صح للجمود أن يحتمل ، من الأخطل بما كان له فى البادية من هوى ومقام ، فإنه لا يحتمل من الفرزدق ، وقد ولد فى البصرة المدينة الإسلامية لآخر عهد الخليفة الثانى ، وعرفت أسرته منذ الجاهلية بالرقة والبعد عن الفظاظة والوحشية . لكنه ، على هذا كله ، كان جامداً على القديم البدوى .

ويبدو هذا الجمود فى الوقوف بالأطلال حين يقول :

ألمَّا على أطلال سُعدى نُسلم دوارس لما استنطقت لم تكلم
وقوفاً بها صحبى على وإنما عرفت رسوم الدار بعد توهم
يقولون : لا تهلك أسى ولقد بدت لهم عبرات المستهام المتيم
فقلت لهم : لا تعذلونى فإنها منازل كانت من نوار بمعلم

فقد أخذ ألفاظ امرئ القيس بعد أن سلبها الروح والدم الحار ، وألفها هذا التأليف الجامد الذى يجرد أسمى المعانى كل ما فيها من جمال . وينتقل من هذا الحديث ، فى غير تمهيد ، إلى موضوع آخر لا صلة للأول به .

ووهم الفرزدق إذ ظن أن هذه الوقفات التى يقصد إليها ويصطنعها حين شاء تعبر عن انفعال أو تنطلى على القارئ ، وكشف عن حقيقة أمره حين قال :

إذا شئت هاجتنى ديار محيلة ومربط أفلاء أمام خيام

فهذا القول واضح الدلالة فى أن الأطلال لا تهيجه ، وأنه يقصد إلى هذا الضرب على أنه لون من البراعة النظمية ، لكن التصنع يكشف عن نفسه دائماً .

وتبدو طريقته فى الجمود عند الماضى الشعرى حين يصطنع معانى القدماء وألفاظهم فى أوصاف الطبيعة .

ورب قائل يقول : ألم يصف الفرزدق الذئب ، فيعجب وصفه القدماء ، ويتحدث عنه بعض المحدثين ، ويبدو فيه معنى الود للحيوان المفترس ؛ وهذه مرتبة عظيمة من مراتب الإلف للطبيعة ؟ ! لقد وصف الفرزدق الذئب مرة فقال :

وليلة بتنا بالغرين ضافنا على الزاد ممشوق الذراعين أطلس
تلمسنا حتى أتانا ولم يزل لدن فطمته أمه يتلمس
ولو أنه إذ جاءنا كان دانيا لألبسته لو أنه كان يلبس
ولكن تنحى جنبه بعد مادنا فكان كقيد الرمح بل هو أنفس

فقاسمته نصفين بيني وبينه بقية زادي والركائب نُعَّس
وكان ابن ليلى إذ قرى الذئب داره على طارق الظلماء لا يتعبس

وقال في أخرى :

وأطلس عسال وما كان صاحباً دعوت بناري موهناً فأتاني
فلما دنا قلت ادن دونك إنني وإياك في زادي لمشتركان
فبت أسوي الزاد بيني وبينه على ضوء نار مرة ودخان
فقلت له لما تكشر ضاحكاً وقائم سيفي من يدي بمكان
تعش فإن واثقتني لا تخونني نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما أخيّين كانا أرضعا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى أتاك بسهم أو شباة سنان

يصح أن يقال : إن الصخر قد ينبض بالماء فلا يغير ذلك من طبعه الجامد ، وإن الفرزدق الجامد في أوصاف الطبيعة قد مثل لوناً من ألوانها ؛ وهو إلف الذئب تمثيلاً حسناً . لكن الواقع أن هذا اللون من إلف الوحش لم يكن مما يدخل في كيان الحياة عند الشاعر الحضري المترف المقرب من الولاة والملوك . كما أننا لم ننس بعد تلك الرياح العالية التي تملأ الجو الشعري ، حين وصف الشنفرى الذئاب وحياتهم الاجتماعية وصفاً بليغاً .

أما شاعرنا فقد أخذ هذا الاتجاه القديم فأحاله ، كذلك ، حين صور الذئب ، وجرده من روح الإلف الصادق . وكان حريصاً على القول بأنه لم يكن صاحباً للذئب ، وأن هذا الحيوان قد صِيغ من الغدر . ولا يُغيِّر من الأمر استعداده لأن يلبسه الثياب ، ومقاسمته الزاد وإكرامه ؛ فهذا تقليد ، أو قصد إلى الدلالة على الكرم والشجاعة .

وقيل إنه كان يحكي بهذا الشعر حادثاً صادفه في الطريق أثناء خروجه في نفر من الكوفة . فلما عرّسوا بالليل ، وكانت معهم شاة مذبوحة ، أتى ذئب فحركها فذعرت الإبل . ورأى الفرزدق ما حدث من أمر الذئب ، فقطع رجل الشاة فرمى بها إليه ، فأخذها الذئب وتنحى ، ثم قطع يدها ورمى بها إليه كذلك فأكلها وانصرف . ولما كان الصباح أنشد فيما حدث بالليل .

ولو صحت هذه الرواية ، وإن أضعفها أن الذئب لا يقنع ولا يرضى القسمة ، فهي تدل على أن هذه القصيدة لا تعدو الذكر للحوادث العابرة ، ولا تمثل فتنة بالذئب أو تصويراً له ، حتى تدخل في شعر الطبيعة .

على أن الفرزدق نفسه قد نعت الذئب نعتاً لا يمت إلى الإلف بسبب حين شبه فقال :

وكنت كذئب السوء لما رأى دماً بصاحبه يوماً أحال على الدم

وإذاً فلا ماء من صخر ، ولا خصب فى أرض موات ، وإنما هو جمود تام ! .

وثالث الثلاثة ، جرير بن عطية ، كان كزملائه فى تناول الأوصاف الطبيعية تناولاً جامداً . وقد يسرع فى الوقوف بالأطلال حتى لا يستغرق سوى بيت واحد ينتقل بعده إلى غرضه من الهجاء أو المدح ، وقد يطيل قليلاً فلا ترى عنده طرافة فى الطول ولا فى القصر .

وقد يطيل فى وصف رحيل الأحبة بعد حديث الأطلال كما فى قصيدته التى مطلعها :

قل للديار سقى أطلالك المطر قد هجت شوقاً فماذا ترجع الذكر

فقد بكى الأطلال ، ثم وصف الظعن ، فالجمل مسرعاً ليعود إلى الظعن . وهو فى جملة معانيه ، بل فى ألفاظه أحياناً كثيرة ، ليس له فى هذا الباب جديد مذكور . وقد أفصح عن حقيقة شعوره حين قال ، بعد أن أطال الوصف والذكر :

ماذا يهيجك من دار ومنزلة أم ما بكاؤك إذ جيرانك ابتكروا !

وقد كان هناك أناس آخرون يسألون هذا السؤال لأنفسهم تعجباً من تماديها فى الحب وبكاء الدار ، أما هو فأصدق اليقين من أمره أنه كان يسأل هذا السؤال على علاته فى غيرانفعال ولا تعجب ، وأنه يمثل به حقيقة نفسه . فهو يجمع معانى القدماء ، مع الإفادة من ألفاظهم ، جمعاً ليس فيه من جديد سوى النظم .

٣

ولكل قاعدة استثناء ، والأحكام الأدبية تمثل الاتجاه العام ولا تبنى على الشواذ . ولهذا نرى فى أدوار الجمود للآداب المختلفة نسمات عاطرة تملأ النفس وتشعر بالحركة والحياة ، قد خضع أصحابها لعالمهم المطلق ومزاجهم الحر ، أو سبقوا عصرهم ، فرددوا نغمات سارت من بعدهم وكانت سمة عامة للعصور التى تلتهم .

وهذه النسمات المعطرة ، التى تهب قليلاً فى دور الجمود لشعر الطبيعة العربى ، تتمثل فى شعر مجنون ليلى ، ونحس أثرها فيما وصلنا من شعر الوليد بن اليزيد .

ولا يعنينا أن يكون المجنون عامراً أو مهدياً أو الأقرع أو معاذاً أو قيساً ابنه أو ابن الملوح أو البحترى بن الجعد ، ولا أن يكون شخصاً واحداً ، أو رمزاً للشعراء الهائمين فى بيداء الحب .

وإنما الذى يعنينا هو أن هذا اللون من الشعراء المخلصين فى الحب الصادرين عن أنفسهم قد كان لعنصر الصدق فى شعرهم أثر فى شعر الطبيعة ، وأن الشعر المنسوب للمجنون مثل له .

والطبيعة فى شعر المجنون وثيقة الصلة بالحب ؛ ترتبط بها نفسه حتى تشاركه مظاهرها وموجوداتُها فى الحب ، ويشاركه الحبُّ فى الفتنة بهذه المظاهر .

فطلوع الشمس وغروبها يصلان بينه وبين ليلى ، حتى يسائل النفس : هل هما يهديان التحية إلى آلها ؟

ألا هل طلوع الشمس يهدى تحية ... إلى آل ليلى أو دنو غروبها (١)

ويثير طلوع النجم والصبح شجونه :

فما طلع النجم الذى يهتدى به ... ولا الصبح إلا هيجا ذكرها ليا (٢)

وإذا نظر إلى السماء ، فرأى طيراً يحلق فى جوها ، حملة السلام إلى الحبيب :

ألا أيها الطير المحلق غاديا ... تحمل سلامى لا تذرنى مناديا (٣)

وفى عالم الحب اتصلت نفسه بنجد وترابها الطيب ، وأقحوان الرمل ، وعلويات الرياح تجرى بروح الخزامى ، والإبل تتنقل بين مواطن الحبيب (٤) .

ومن أجل الحب هام برائحة الخزامى ، وأخذ يناجى شجرات الأثل ، يطلب الطمأنينة لفؤاده فى ظلها :

ألا هل إلى شم الخزامى ونظرة ... إلى قرقرى قبل الممات سبيل

فيا أثلات القاع قد مل صحبتى ... مسيرى فهل فى ظلكن مقيل

ويا أثلات القاع ظاهر ما بدا ... بجسمى على ما بالفؤاد دليل

ويا أثلات القاع من بين توضح ... حنينى إلى أفيائكن طويل

ويا أثلات القاع قلبى موكل ... بكنّ وجدوى غيركن قليل (٥)

وإذا رأى ظبياً حدثه عن ليلى (٦) .

---

(١) الديوان ؛ ط مصر ، سنة ٣٧ : ٣٨ .

(٢) نفس المصدر : ٨٨ .

(٣) نفس المصدر : ص ٣٣ .

(٤) نفس المصدر : ص ١٠ .

(٥) الديوان : ص ٣٩–٤٠ .

(٦) الديوان : ص ٣٦ .

وإذا مر بعقاب ساقط على وكره ، دعا له ، وطلب منه بياناً عن الحبيب يخرجه من الظلمات إلى النور (١) .

وحين تصور الغراب ، دليل الفراق وتذير الرحيل ، قسا ودعا عليه بالعذاب والهوان وبالتشريد وفراق الأحبة مثله .

وإذا مر بأطيار على أشجار دنا منها مفتوناً بتناجيها ، ومتذكراً الحبيبة بفتنتها ، وناشداً أشعار الهوى والغرام (٢) .

وإذا هتفت ورقاء على فنن بكى بكاء الوليد (٣) .

وقد ينفس على الحمائم طمأنينتها مع اضطرابه ، ويعقد بينه وبينها ألواناً من المقابلة الطريفة الدالة على شدة الفناء فى الطبيعة (٤) .

ومن هذا تشبيه قلبه ليلة الرحيل بقطاة وقعت فى الشرك معلقة الجناح ، يبكيها فرخاها القائمان بقفر يمنيان النفس بمرآها ، ويتخيلان عصف الرياح إيذاناً بقدومها (٥) .

وأشد دلالة على معنى الفناء فى الطبيعة تمنيه أن يكون هو والحبيب غزالين يرتعان فى الرياض ، أو طائرين يحلقان نهاراً فى الجو ، ثم يأويان مساء إلى وكرهما ، أو حوتين يسبحان معاً فى البحر (٦) .

والوليد بن يزيد – وقد كان يسير مع نفسه على سجيتها ، غير حافل بأعباء الإمارة والملك ، ولا مقيد نفسه بأى قيد – يدل المأثور من شعره ، وهو قليل ، على نزعة مشابهة لنزعة المجنون :

ومن شعره الدال على الاتصال النفسى بالطير عن طريق الحب قوله :

خبرونى أن سلمى خرجت يوم المصلى
فـــإذا طير مليح فوق غصن يتفلى
قلت : من يعرف سلمى ؟ قال : ها ! ثم تعلى
قلت : يا طير ادن منى ! قال : ها ! ثم تدلى

---

(١) الديوان : ص ٣٨ .
(٢) الديوان : ص ٣٠ ، ٦٢ .
(٣) الديوان : ص ٥١ .
(٤) الديوان : ص ٦٣ – ٦٤ .
(٥) الديوان : ص ٧٩ .
(٦) الديوان : ص ٥٧ .

قلت : هل أبصرت سلمى ؟ قال : لا ! ثم تولى
فنكا فى القلب كَلْماً باطناً ثم تعلى[١]

وقد تحدث كذلك عن العصافير وتبشيرها بالصباح ، ومهد لبعض نزعات أبى نواس فى الطبيعة والخمر ، والانصراف عن الأطلال[٢] .

* * *

وهذه المعانى السابقة معان طبيعية جميلة ؛ كانت كالإرهاص يعقبه الوحى ، ومقدمة لما بعدها . لـكنها على ذلك ، تبدو فى هامش الجو الأدبى العام الذى يغشيه التقليد ، بل الجمود .

(١) ديوان الوليد بن يزيد ، نشر المستشرق الإيطالى ف . جبريالى ، ط دمشق سنة ١٩٣٧ : ص ٥٢ .
(٢) الديوان : ص ١٥ و ٢٩ و ٤٥ و ٤٨ .

الفصل الثالث

تفسير الجمود

١

إن الأحداث السياسية هى التى قسمت الشعر العربى على هذا النحو : غزل فى الحجاز ؛ مستهتر فى الحضر ، وعفيف فى البادية ؛ وشعر سياسى عند الخوارج والشيعة ؛ ومدح تقليدى عند شعراء الأقاليم .

ذلك بأن الحجاز قد سلب السلطان حين صارت العاصمة الإسلامية دمشق الشام ، بل أصبح مأوى للثائرين من بنى هاشم والزبيريين والأنصار .

وبهذا عاد إلى خمول الذكر ، وذهبت شهرته ، ولم يبق له سوى موسم الحج ، وانقلب سكان الحجاز ونجد إلى حياتهم المحدودة ، وانصرفوا عن السياسة والجيش .

طبيعى . وذلك أمره . ألا يصطنع المدح ولا الهجاء ؛ فالمدح مصدره الاتصال بالحكم . والهجاء الذى ينال من الناس ولا يحميه الخليفة يؤاخذ به صاحبه ، أما إذا اتصل بالخليفة نفسه فالويل للشاعر الذى لا يستطيع النجاة من سلطان الخليفة بعد أن دانت له شبه الجزيرة بل بلاد فارس وممتلكات الروم ! والويل للحجاز إن حمى هذا الشعر الثائر !

اصطنع أهل الحجاز الغزل الجاهلى الذى بلغ ذروته عند الأعشى الشاعر المغنى . وشاع عندهم شيوعاً حتى أصبح ينشد فى البيوت ، وبخاصة فى بيوت المشهورات من النساء مثل سكينة بنت الحسين ، بل كان ينشد فى مسجد رسول الله كما كان النساء يجلسن فى المسجد الحرام يوازنّ بين شعر كثير وجميل ونصيب[1] . أما أهل البادية فقد اصطنعوا الغزل الشعبى الملائم لبيئتهم ، والذى لا يزال له نظير فى تلك البيئات حتى اليوم .

---

(١) الأغانى ؛ ط دار الكتب : ج ١ ص ٣٧٧ .

وكان الفريقان مقلدين لم يخرجا على الأصول القديمة ، وكان جمودهما فى شعر الطبيعة على أتمه .

أما الذين ثاروا وهيأوا أنفسهم لحمل أعباء الثورة ، وهم الخوارج والشيعة ، فقد شُردوا ، ولم يكن لهم فى شعر الطبيعة نصيب .

وأما المداحون فقد جمدوا فى التقليد . وكان لكل ذلك أسبابه .

٢

أحيا الخلفاء الأمويون ، وخاصة من بعد معاوية ، النزاع القبلى ؛ فكان الخليفة يصطنع القبائل التى تناصره ، ويستبد بالقبائل التى تعاديه ، وثارت بين القبائل فتن ، وانبعث الماضى بكل ما فيه من ألوان شعرية وخصومات وفخر بالأيام والمواقع .

ويتمثل هذا النزاع القبلى ، وبعثه بعثاً ضارياً عنيفاً ، فى قول الأخطل يمدح عبد الملك ابن مروان ، ويهجو قيساً وبنى كلب ويحرض عليهما :

بنى أمية إنى ناصح لكم ... فلا يبيتَنّ فيكم آمناً زُفَرُ
إن الضغينة تلقاها وإن قَدُمت ... كالجُرِّ يكمن حيناً ثم ينتشر

وهى أبيات طويلة منها :

فلا هدى الله قيساً من ضلالتها ... ولا لعاً لبنى ذكران إذ عَثَروا
ولم يزل بسُلَيْم أمرُ جاهلها ... حتى تعايا بها الإيراد والصَّدَر
أما كليبُ بن يَرْبوع فليس لهم ... عند التفارط إيراد ولا صَدَر
وقد نُصِرْتَ ، أميرَ المؤمنين ، بنا ... لما أتاكَ ببطن الغوطة الخبر

أرأيت جاهلية أمعن من أن يستمع أمير المؤمنين إلى شاعر نصرانى ، ينال من القبائل الإسلامية ، ويمن على الخليفة بنصر تغلب له ؟ ! إن هذا قد يبدو نابياً ، وقد أدى ببعض المتعصبين إلى الطعن على دين بنى أمية . لكن الحقائق الأدبية لا توزن بميزان غيرها ، وفى سبيل الفتنة الأدبية ، وفى سبيل السياسة يستساغ الكثير . وقد أنكر هذا أحد المسلمين المعاصرين ، وقال لعمرو بن العلاء : « يا عجباً للأخطل ! نصرانى كافر يهجو المسلمين ! » . لكن الإحياء للعصبية الجاهلية كان من الوضوح بحيث استحق عجب عمرو من هذا

العجب ، فأجابه : « يا لُكَع ! لقد كان الأخطل يجيء وعليه جبة خز ، فى عنقه سلسلة ذهب ، فيها صليب ذهب ، تنفض لحيته خمراً ، حتى يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن ! »(١).

وهكذا نرى الخلفاء الأمويين يحيون العصبية الجاهلية ، والأدب الجاهلى إحياء ، ولايألون فى سبيل هذا الإحياء لشىء ، ويحيون وسط مظاهر الحضارة بعقول بدوية . وقد أغدقوا على شعراء المدح أنواعاً من النعيم بالغة ، واتخذ كل خليفة شاعراً مختاراً ، كما أغدق واتخذ الحكام فى الجاهلية ، بل أشد مما فعلوا .

وترتب على فتنتهم بالحياة الجاهلية وأدبها الفتنة بشعراء الجاهلية وبأوصافهم الطبيعية ؛ فترى الخلفاء يشغلون مجالسهم بحديث المفاضلة بين الجاهليين ، ويطلبون إلى الشعراء وصف الحياة البدوية بإبلها وصفاً مفصلاً(٢) . ويطربون للشعر الجاهلى كل الطرب(٣).

٣

وكانت الجماهير ، على دين ملوكهم ، تطرب للشعر الجاهلى وتشغل نفسها بالمفاضلة بين شعراء الجاهلية ، كما كان الوقوف بالأطلال وبكاء الدمن ، ووصف الرحيل والإبل وما إليها يستهويهم ، ويفضلون الشعراء الذين يتبعون الطريق الجاهلى ، ويعنون بهذه الألوان . وكتب الأدب مليئة بالأخبار الدالة على هذا . والقصة الآتية مثل منها :

« بينا المهلب ذات يوم أو ليلة بفارس ، وهو يقاتل الأزارقة ، إذ سمع فى عسكره جلبة وصياحاً ، فقال : ماهذا ؟ قالوا : جماعة من العرب تحاكموا إليك فى شىء ، فأذن لهم . فقالوا : إنا اختلفنا فى جرير والفرزدق ؛ فكل فريق منا يزعم أن أحدهما أشعر من الآخر ، وقد رضينا بحكم الأمير . فقال : كأنكم أردتم أن تعرضونى لهذين الكلبين فيمزقا جلدى » ثم دلهم على الأزارقة أعدائهم ؛ « فإنهم قوم عرب يبصرون بالشعر ويقولون فيه بالحق » ، وذهبا إلى معسكر الأعداء ، وطلبا المبارزة ، فخرج إليهما رجل سألاه فى الأمر ، فأجاب بعد تمنع بتفضيل جرير لقوله فى الخيل :

---

(١) الأغانى ؛ ط دار الكتب : ج ٨ ص ٢٩٩ .

(٢) الأغانى ج ٩ ص ٧٥ .

(٣) نفس المصدر : ج ٦ ص ٩١ – ٩٢ .

وطوى الطِّراد مع القياد بظونَها طيَّ التجار بحضرموت برودا[١]

وهذه القصة لها روايات أخرى[٢] ، تتفق فى الحوادث السابقة ، وتزيد إحداها أن المتنازعين حين ذهبا إلى الأزرق سألها ، قبل الإجابة ، عن إيمانهما بالخليفة ، فأجاباه بأنهما لا يعدلان به شيئاً من أمر الله أو سنة الرسول .

ويتبين من هذه القصة ، على ما قد يكون فيها من مبالغة ، أن هذا الشعر كان يملك على العامة والخاصة أفئدتهم ، وأن الشعر الجاهلى وما على شاكلته كان يشغل الناس من جميع الأحزاب ، ويطالعونه لا فرق بين أصحاب المذهب السياسى الرسمى وبين خصومهم ، بل إن هؤلاء الخصوم ، مثل الأزارقة ، كانوا أشد بصراً به ، وكأنهم كانوا يقصدون هذا الفن الشعرى البدوى لذاته ، وإن آلمهم تشيع أصحابه للحاكمين ، ولعل العناصر الطبيعية كانت أشد فتنة لهم .

هل وجد عامة الشعب فى هذا الشعر تمثيلاً لماضيهم ، وقد أصبحوا أشد إعزازاً له ، فاعتزوا به ؟ وهل أصبحت الجاهلية تتراءى فى عيونهم جميلة ، تستهوى الأبصار وتعجب القلب والعقل ؟ وهل ألم بهم ما يلم ببعض الشعوب فى الفترات التاريخية من التعلق بالماضى ؟ وهل خشى العرب أن تنسيهم الحضارةُ الجديدة حياةَ البداوة التى نجم فيها سر قوتهم وغلبتهم الأسدين فارس والروم ، فاعتزوا بهذه الحياة وعاشوا فيها عقلا وقلباً وإن عاشوا فى الحضارة جسداً وحساً ؟ ربما صح هذا ، وهو غير بعيد . فقد خشى من قبل عمر بن الخطاب من الحضارة حين تغبرت بشرة العرب المحاربين فى فارس ، وسأل الرسل متعجباً : ماذا غيّر ألوانكم فأجابوه بأنها وخومة البلاد . حينئذ أمرهم أن يبنوا البصرة والكوفة على حدود الحضر والبادية ، وكان حريصاً على أن يحيوا أقرب إلى الحياة البدوية ، فلم يرخص ببناء منازلهم بالحجارة إلا بعد أن التهمت النيران ديارهم ، وكان يتوجس خيفة من مصير العرب كلما انهالت المغانم وأسباب الترف عليهم . لكن ذلك كله لم يقف دون الترف ، ولم يحل دون الأخذ بأسباب النعيم ، فقد كانت عوامل التطور أقوى من كل عائق ، وإن ظل هوى المسلمين على ذلك كله متعلقاً بالجاهلية وأنماط حياتها إلى عصر متأخر ، حتى إن الجاحظ نفسه فى بدء النهضة يتحدث عن

---

(١) الأغانى : ج ٨ ص ٤٢ – ٤٣ .

(٢) الأغانى : ط دار الكتب ، ج ٧ ص ٧ .

«أن الناس بمآثر العرب فى الجاهلية أشد كلفا» ، ثم يعجب من أنهم لا يقدّسون أيام الإسلام وانتصاراته ويفتنون بأخبار بطولته مع أنها تربو على ما فى الجاهلية أو تماثلها على الأقل [١] .

٤

وفى هذا العصر نهضت حركة الرواية ووضع العلوم اللغوية ، مما يتطلب الرجوع إلى الماضى الأدبى ، والإلمام به لاستخراج القواعد العربية وتدوين اللغة وتفسير القرآن .

وهؤلاء الرواة وعلماء اللغة كانوا ، بحكم عملهم ، شديدى التعصب للماضى الجاهلى ، لا يفضلون شاعراً إلا إذا اشتد قربه من الشعراء الجاهليين ، بل كانوا يعجبون بالشاعر المعاصر ثم لا يقدمونه لأنه لم يدرك الجاهلية . وكان حكم هؤلاء الرواة نافذاً بين الناس ، وكان الخلفاء يستحضرون هؤلاء الرواة عند إنشاد الشعراء ويطلبون رأيهم ، كما كان الشعراء ضعفاء أمام هؤلاء الرواة لأنهم عالمون بمصادر شعرهم القديمة ، قديرون على الكشف عنها . وقد قال بعض الرواة : إن هؤلاء الشعراء كَلٌّ على الماضين ، إن أحسنوا فمن غيرهم ، وإن أساءوا فمن أنفسهم . وكشفوا لهم أحياناً عن سرقاتهم ، فرجوهم أن يتستروا عليها ، وقال أحد الشعراء فى غير خجل : «إن ضَوَالَّ الشعر خير من ضوالّ الإبل» . وكان العامة يؤمنون كذلك بآرائهم فى المفاضلة بين الشعراء ، وتكفيهم هذه الآراء فى غير مناقشة لها ؛ لأنها صادرة عن خبراء بفنهم ، يعرفون الأصول والمصادر ، ويميزون بحسهم وملكاتهم .

وقد كان للرواة حلقات يأوى إليها الناس ليسمعوا ما يروونه من الشعر ، وكان الخلفاء يجيزونهم على روايتهم ، كما يجيزون الشعراء ، بل أعظم مما يجيزونهم [٢] .

ولم لا يفعل الناس والخلفاء ذلك ، والشعراء يحتذون القدماء ويحمدون عند أمثلتهم ؟ أليس الأصل أحق بالتقدير من الفرع ؟ .

وكيفما كان الأمر ، فإن هذا العصر قد امتاز بالجمود فى شعر الطبيعة ، وأن هذا الجمود قد أصبح قاعدة لها ما يسوّغها ويدعو إليها .

---

(١) الحيوان ؛ ط الحلبى سنة ١٩٣٨ : ج ٢ ص ١٠٨ .

(٢) راجع شواهد لكل ما ذكر فى كتاب الأغانى ؛ ط دار الكتب : ج ٨ ص ٥ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٠٥ ، وج ٩ ص ١٠٩ ، وج ٣ ص ٢٤٣ وج ٦ ص ٧٠ – ٧٢ و ٩١ – ٩٢ ؛ وط ساسى : ج ١٧ ص ١٦ ، ج ٢١ ص ١٣٠ .

ولكن هذا كله لم يكن ليمنع شاعراً عبقرياً، لو تهيأ لهذا العصر أن يظفر به ، من أن يثور على الجمود وتمثيل الطبيعة الغنية بمظاهرها فى الإمبراطورية الإسلامية ، لأن الشاعر الملهم لا يعرف حدوداً لشاعريته ، ولا يتقيد بغير عالمه الباهر ، بل إنك لو ألقيته فى الصحراء ، أو قذفت به فى جزيرة قفر وسط المحيط لأعجز ، كما يقول أحد النقاد الإنجليز . وقد رأينا إرهاصاً عند شعراء الحب فى هذا العهد كان من الممكن أن ينتهى بالوحى .